إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة السادسة – العدد الحادی والعشرون – ربیع ۱۳۹۵ش/آذار ۲۰۱٦م
صص ٤٢ ـ ٩

نقد آراء النُقّاد المعاصرين فی أبی نواس وخمرياته

سیدمحمد حسینی*
یوسف هادی‌پور نهزمی (الکاتب المسؤول)**

الملخص

لأبی نواس شخصية فذّة أثارت جدلاً حاداً بين النقّاد من القدامى والمعاصرين والتّی ما تزال تُثير حوله الكثيرَ من الجدل؛ فلايمكن التعرف على حقيقة شخصيّته وشخصيّته الحقيقيّة إلا بعد إعادة القراءة فی أغلب ما قيل حوله؛ وللوصول إلى هذا الغرض نحن بحاجة إلى نوع خاص من الحزم والحذر فی قبول ما قيل عنه وما نُسِبَ إليه، وكذلک بحاجة إلى تقويم جديد لنهج حياته وطريقة تفكيره التی لاتُفهم من خلال ظاهر أشعاره، فی كثير من الأحيان، ولاسيما أشعاره الخمرية. المقال الذی بين أيديكم قد تناول آراء النقاد القدامى بصورة عابرة وقام بمعالجة آراء النقاد المعاصرين بشيئ من التفصيل لتبيين مقدار إفراطهم عليه بسبب التحاليل النفسية التی لا أثر لها فی تحاليل النقّاد القدامى ولا أساس لها من أصل. ولإنجاز هذه المهمّة تمّ الاستناد إلى بعض الأخبار والأشعار التی سببت أن تتزايد أخبار السوء حوله وحول أمّه وإلى بعض الأبيات والقصائد التی تشير إلى الأجواء السائدة على تلک الفترة والأبيات التی تدل على بعض معتقداته من وجهة النظر السياسية والدينية.

الكلمات الدليلية: أبونواس، الشعر الخمری، النقاد القدامى، النقاد المعاصرون.

---

*. أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد الإسلامية فی كرج، كرج، إيران
**. أستاذ مساعد فی اللغة العربية وآدابها بجامعة آزاد الإسلامية فی كرج، كرج، إيران
Hadi1339@yahoo.com

تاريخ الوصول: ۱۳۹٤/٦/۲۷ش تاريخ القبول: ۱۳۹۵/۲/۲۰ش

المقدمة

لدراسة جديدة حول حياة أبى نواس وشعره الخمرى وللتعرف على حقيقة أمره إنّنا بحاجــة إلى نوع خاص من الألفة بحياة تلك الشــخصيّة المتميزّة ومعرفة نمط تفكيرها وســلوكها واكتشــاف العلاقات الشــخصية والرّوحية التى ترتبط بينها وبين البيئة التى نمت فيها؛ وفضلاً عن ذلک لابدّ أن نتعرفّ على الحوادث السياسية الّتى جرت فى تلک الفترة، وكذلک على ســلوک الدولة العباســيّة ومواضع الخلفاء تجــاه الناس وتعاملهم معهــا، ومواضع أبى نواس تجاه هــؤلاء الخلفاء الذين كانوا يلبســون بردة النبى(ص) دليلاً على سلوكهم سبيله وتسميتهم بأميرالمؤمنين حتى يتمكن لنا فهم أشعاره الخمرية، تلــک الأبيات التى أصبحــت خالدة مدى العصور الماضية ولا شــکّ أنها تبقى خالدة فــى العصور القادمة. ورفضاً للذين زعموا خمرياته مرآة لحياته الشــخصية وافترضوها سيرته الذاتية المكتوبة بلسان الشعر بدلا من النثر لا بد من إعادة النظر فيما قيل عنها وعن مدلولاتها. ونســأل النقاد المعاصرين: كيف يمكن أن تكون خمرياته ســيرته الذاتية المكتوبة بلسان الشعر بدلا من النثر؟ وما معنى تلک التفاسير التى أخرجوها من ظاهر أشعاره الخمرية؟ وما معنى تلک المفاهيم والطقوس الدينية التى نسبوها إلى أبى نواس مــن مثل: عبادة الخمرة، وإقامة حفلة الزفاف لها و... والتى تثير إعجاب القارئ وتمس بعقله؟ وكلها بذريعة أنه من المجوس.

وأمّا الّــذى يرتبط بالكتّاب القدامى فى حياة أبى نواس، فإنهم اهتمّوا بجمع أخباره الــتى تدلّ على ذكائه وكثــرة علمه وأدبه وثقتــه من جانب، وعلى مجونــه وتهتّكه من جانــب آخر دونَ أن يقوموا بتحليل نفســىّ لشــخصيته. وقــد ورد أخبار أبى نواس فى كتــب كثيرة منها: كتاب البيــان والتبيين للجاحظ، والكامل فى اللغــة والأدب للمبّرد، والشــعر والشــعراء لابن قتيبة، وطبقات الشــعراء المحدثين لابن المعتز، والأغانى لأبى الفرج الإصفهانى، والفهرســت لابن النديم، ورسالة الغفران لأبى العلاء المعّرى، وتاريخ بغداد لأبى بكر الخطيب البغدادى، والتاريخ الكبير المعروف بتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر الشــافعى، ووفيات الأعيان لابن خلّكان، وفى كتب كثيرة أخرى. وأمّا أوّل من عنى بجمع أخباره حتى زمانه فهو ابن منظور فى كتابه المسمّى بـ"أخبار أبى نواس" بعد

أن رأی قـد فقد ترجمة أبی نواس من کتاب "الأغـانی" لأبی فرج الأصبهانی. وقد جمع ابن منظور فی کتابه کلمّا قیل عن حیاة أبی نواس وعن شـخصیّته وأشعاره ذاکراً بعض الحوادث التی تتجلّی فی بعض أشعاره وقصائده.

وأمّـا النقّاد المعاصرون الذین کتبـوا عن أبی نواس، فلم یکونوا یحافظون علی هذه الجوانب من حیاته أصلاً، بل إنّهم اکتفوا بالرّوایات المتناقضة والقصص المختلقة حوله وحول أمّه؛ ورکّزوا علیهما أیّ ترکیز. ومن هنا وصلوا إلی نتائج شـاذّة لم یصلوا إلیها النقـاد القدامی قطّ. ولإماطة اللثام عن الحقایـق الموجودة التی تحتوی علی حیاة أبی نواس الشخصیة والقضایا التی تشیر إلیها خمریاته، فی کثیر من الأحیان، بصورة رمزیة لابد لنا أن نعالج کلما قیل عنه من القدیم إلی عصرنا الحاضر ولو کانت عابرة.

آراء النقاد القدامی

إن المتتّبع لأخبار أبی نواس وأحواله یواجه أخبارا متضاربة وآراء متباینة فی تناول شـخصیّته ومعالجة أشـعاره الخمریة بحیث لا یتاح له التعرّف الصحیح علی حقیقة أمره وحقیقـة خمریاته. فقد أجمع غالبیة الذین کتبوا عن سـیرته وشـخصیته علی أنّه: «کان عالماً فقیهـاً، عارفاً بالأحکام والفتیا، بصیراً بالاختـلاف، صاحب حفظ ونظر ومعرفة بطرق الحدیث، یعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحکمه ومتشابهه ... وکان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمین وأوائل الإسـلامیین والمحدثین.» (ابـن المعتز، ١٩٩٨م: ٢٣٤) کما کان متکلمـاً جدلـاً فهماً، فـکاد یکون إماماً مـن أئمّته وکان متبحـرّاً فی علم النجوم والطبیعیـات، وکمـا کان راویة فحلاً بحیث روی عنه الکثـیرون من الفقهاء وأصحاب الحدیث، فضلا عن کونه شـاعراً مجیداً، ومن جانب آخر یؤکّـدون علی أنّه کان عابثاً، ماجناً، فاسـقاً، خلیعاً کل الخلاعة. (حسین، ١٩٨٦م: ج٢: ٤٥و٤٦) فلو سلّمنا بما روی عنه من إلمام بهذه العلوم، وسعة الاطّلاع، والثقة والإطمئنان، فلیس من المعقول أن نقبل القصص المختلقة حول مجونه السـافر ومجاهرته بالفجـور بتلک الصورة الصارخة التی تحـدّث عنها البعض من أصحاب التواریخ. ولکی یتاح للباحثین التعرف الصحیح علی حقیقة أمره وحقیقة معانی أشعاره الخمریة، فلابد من إلمامة ولو عابرة علی حیاة الشاعر

الشــخصيّة، والّتى قضاها فى ظلّ ظروف سياســيّة بالغة التعقيد وفى ظلّ حكومة جائرة أخذت من الإسلام غطاءً لتبرير أعمالها.

وأمّا المتتبّع فى تلك الروايات المنقولة الّتى تدلّ على مجون أبى نواس الشاذّ وتهتكه الســافرة فيرى عدم صحتّها بوضوح واضح، لأنّه يرى، فى الكثير من تلك الحوادث، أبانواسَ عالما بالغيب والأخبار التى تجرى بين الخليفة ونساءه ونديماته فى الخلوات، فلا يخلو من الفائدة أن نقوم بذكر بعض القصص المختلقة، كنموذج، لإيضاح كذبها: «قيلَ إنّ أمير المؤمنين، هارون الرشــيد أرق ذات ليلة، فقام يتمشّى فى قصره بين المقاصير، فرأى جاريــة من جواريه نائمة فأعجبتْهُ فداسَ على رجلها، فانتبهت، فرأته، فاســتحيتْ منه وقالتْ: يا أمينَ اللّه ما هذا الخبر؟ فأجابها يقول:

قلتُ ضيفٌ طارقٌ فى أرضِكُم　　　هل تُضيفوه إلى وقتِ السَحَر

فأجابــت: بســرورٍ ســيدّى　　　أخدمُ الضيفَ بسمعى والبَصَر

فبات عندها إلى الصباح. فلمّا كان الصباحُ ســأل: من بالباب من الشعراء؟ قيلَ له: أبونــواس. فأمرَ بــه فدخَل عليه. فقال: هات ما عندك علــى وزن "يا أمين الله ما هذا الخبر" فأنشد يقول:

طال ليلــى وتولاّنى السَــهَر
فتفكّــرتُ فأحســنتُ الفِكَر

فــإذا وجــهٌ جميــلٌ مشــرقٌ
زانَــه الرحمنُ يُــزرى بالقَمَر

فلمســتُ الرجِلَ منها مُوطئاً
فدَنتْ مــنّى ومَــدّت بالبَصَر

وأشــارت لى بقــول مُفصح
يــا أمــينَ الله ما هــذا الخبَرٌ

قلتُ ضيفٌ طارقٌ فى أرضكم
هل تُضيفوه إلى وقتِ السَحَر

فأجابــت: بســرورٍ ســيّدى
أخدمُ الضيفَ بسمعى والبَصَر

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

فتعجّبَ أميرُ المؤمنين وأمر له بصلةٍ.» (العقّاد، لاتا: ٥) وقيلَ: «إنّ الرشيد دخل يوما وقت الظهر إلى مقصورة جارية تسمّى "الخيزران" على غفلةٍ منها ووجدها تغتسل: فلما رأته تحلّلت بشعرها حتى لم يَر من جسدها شيئا، فأعجبه منها ذلک الفعل واستحسنه. ثم عاد إلى مجلسه وقال: من بالباب من الشعراء؟ قيل: بشّار وأبونواس. فأمر بهما، فحضرا وقال: لِيَقُلْ كلٌّ منكُما أبياتا توافق ما فى نفسى. فأنشأ بشّار يقول:

تحبّبتكُم والقلبُ صار إليكُم بنفسى ذاک المنزل المتحبّب

إلى أن يقول:

وقالوا: تجنّبنا ولا قربَ بيننا وكيف وأنتم حاجتى أتجنّبُ

على أنّهم أحلى من الشهدِ عندنا وأعذبُ من ماء الحياة وأطيبُ

فقال الخليفة: أحسنت، ولكن ما أصَبتَ ما فى نفسى. فُقل أنت يا أبا نواس. فجعَل يقول:

نضتْ عنها القميصَ لصبّ ماءٍ فورّد خدّها فرطُ الحياءِ...

...فسبحانَ الإله وقد براها كأحسن ما تكون فى النساء

فقال الرشيد: سيفاً ونطعاً يا غلام! قال أبونواس: ولِمَ يا أمير المؤمنين؟ قال: أمعنا كنتَ؟ قال: لا واللّه، ولكن شيءٌ خطر

ببالى. فأمر له بأربعة آلاف درهم.» (المصدر نفسه: ٧)

ولا حاجة إلى ردّ هذا المدّعى إلاّ أن أذكر بأنَّ أبانواس ما كان شاعر البلاط إلاّ فى خلافة الأمين والثانى أن بشّاراً قُتِلَ فى زمان المهدى وما أدركَ عصرَ هارون الرشيد أبداً. وأمثال هذه الروايات كثيرة، وأكثرها كما يرى القارئ مُقامة مؤلفة لا صحّة لها، ولكنها تدلُّ على تمكّن الشاعر فى سياق الخبر التاريخى أو سياق الاختراع والتأليف.

نقتصر القول على آراء القدامى حول أبى نواس، معتقدين بأنّها لا تدلُّ على شىء مهمّ عن حياته وأشعاره. ولكنّ المهمّ عند البحث عن أحواله هو أنّ أخبار السوء فى كتب الأوّلين أقلّ من أخبار السوء فى كتب المعاصرين، والأخبار الدالّة على كثرة علمه وأدبه وثقته وإيمانه أكثر وأكثر من أخبار السوء. ومهما ننتقل إلى الكتب الحديثة نواجه أخباراً غير كريمة تتزايد حوله. فلِلباحث أن يراجع الكتب القديمة القريبة من حياته

ليُصان عن الخطأ.

وأمّا بالنسبة لأشعاره فأوّل من يفسّر بعضها هو ابن جنّى. إنّه يُفسّر أرجوزة أبى نواس فى تقريظ الفضل بن الرّبيع- وزير الرشيد والأمين - ويقوم بشرح القصيدة شرحاً وافياً، معتقداً أنّ «أبانواس فى هذا النوع من شعره الّذى توفَّرَ فيه على الجِدّ الصِرف، كان يتعمّد هذا المنحى الأعرابى الخالص تعمّداً ليلفت علماءُ اللغة إليه فيحفلوا به، أو ليظهر لجماهير الأدباء اقتداره البالغ على مجاراة شعراء العرب الأوّلين وأنّه لا ينزل عن طبقتهم إن لم يكن فوقهم طبقةً، إلى جانب تجديده فى اللغة والأسلوب والأغراض والمعانى.» (الأثرى، ١٩٦٦م: ٥-٤)

آراء النقاد المعاصرين

نكتفى بهذا المقدار من أخبار القدماء حول أبى نواس، وكما رأينا كثيراً منها تدل على علمه وأدبه وذكائه، والبعض منها يشبه بالقصص المختلقة التى لا أهمية لها. وأمّا، من المؤسف، أن المعاصرين الذين كتبوا عن أبى نواس فلم يكونوا يحافظون على تلك الجوانب العلمية والأدبية من حياته أصلاً، بل إنّهم اكتفوا بتلك الرّوايات المتناقضة والقصص المختلقة حوله وحول أمّه، فما أعطوه حقّه عندكتابة سيرته وتفسير أشعاره ولاسيما خمرياته التى تعتبر مرآة تتجلى فيها حياة المجتمع فى ذالک الوقت، ولا حياته الشخصيّة ضرورة، بل لسوء فهمهم عنه وعنها وصلوا إلى نتائج شاذّة والتى لم يصل إليها النقاد القدامى قطّ. إذ إن النقاد المعاصرين عالجوا نفسية أبى نواس وحللّوا أخباره وأشعاره بصورة كأنّه لم يكن شاعراً، فضلاً أن يكون شاعراً عبقرياً، بل إنّهم اختلطوا الأخبار الصحيحة بالآراء المختلقة وصنعوا شاعراً ماجناً باسم أبى نواس. هذا هو أحمد عبدالمجيد الغزّالى إذ يقول فى مقدّمة ديوان أبى نواس: «فقد نشأ الحسنُ يتيما فى كنف أمٍّ شغلتها عنه مطالبُ العيشِ، والسّعى الدؤوب من أجله ومن أجل إخوته، واضطرتّها الحاجة إلى أن تجعَلَ مِن بيتها مُلتقى لروّاد المُتعة وطلاّب اللّذة، يجتمعون فى منزلها فيشربون ويقصفون، ويقضونَ مأربَهم تحت سمعها وبصرها، ربّما تحت الوليد الناشىء وبصره كذلک. ثمّ انتهت بها الحال إلى علاقة برجلٍ من أهل البصرة، تناقل الناسُ

حديثها قنروّجت منه قطعاً لِلألسنة وقضاءً على ما يثار حوله وحولها من كلام غير كريم. وبهذا الزواج انقطعت تلك الصلة الضئيلة التّى كانت تربط الأمَّ بابنها ... انقطعت لأنّها شـاءت لها أن تنقطع، فقد انصرفت إلى زوجها واسـتغرقتها حياتها الطارئة ولم تلتفت بعد ذلک إلاّ إلى نفسها. ولم تصغ لنداء غير نداء عاطفتها الجديدة.» (الغزّالى، ١٩٥٣م: ط) والحال أنّ القارئ يشعر بأنّ الناقد قد ألزم نفسه أن يصل إلى نتائج معينّة مفروضة من قبل بحيث يتعجّب الباحث ويتسـاءل نفسـه: من أين أتى الكاتب بهذه المعلومات؟ ويزداد إعجابه حينما يـدرک أنّ هذه المعلومات والنتائج كلّها مأخوذة من عدة أبيات قالها "أبان اللاحقى" الشاعر الذى عداوته لأبى نواس مشهورة حيث يقول:

«أبونـواس بـن هـانىء
وأمّـه جُلّبـانِ
والنـاس أفطـن شـىء
إلـى حـروف المعـانى
إن زدتُ بيتـاً علـى ذى
مـا عِشـتُ فاقطع لسـانى»

(ابن المعتز، ١٩٩٨م: ٢٧٣)

أو يقول:

«هـانى الجـون أبـوه
زاده الله هوانـا
سـائل العبّـاس واسمـع
عنـه مـن أمّـكِ شـأنا»

(صدقى، لاتا: ٢٢)

ولا يخفى على القارىء، الحقد المخبوء فى هذه الأبيات. فقد بنى الغزّالى حديثَه على هذه الأبيات وما شابهها من الأخبار دون ثقةٍ لها. وفى الحقيقة عرّج عن طريق الصواب للحصول على نتائج مفروضة على نفسه. فلهذا يتابع القول ويقول: «إنّ طفلاً فى مثل سنّ أبى نواس، تسـلمه ظروفه وحيداً إلى التجربة، وتتركه أعزل للحوادث، لا يجد فى نفسه

القدرة الكافية لأن يجتنب الحوادث، ويعلو على التجربة، ويقاوم إغراءَ الحياة بما تقدمّه من مشـهيات مثيرة وأن يفطن إلى النتائج المجهولة، وهو يخطو على عتبة الدنيا ... ومّما يزيد فى خطورة الأمر فى هذه السنّ أنّ وسيلة الحياة إلى الإغراء هى ما ركب فى نفس الطفل مِن ميلٍ إلى اللعب ومن غريزة جنسـية، ومن حبّ لِلاستطلاع. فلا يمكن والحالة هذه مقاومتها، والتغلّب عليها ... بل إنّه ليبحث عنها إن لم يجدها وإنّه يسعى إليها إذا لم تسع إليه.» (الغزالى، ١٩٥٣: ى-ط)

يتحـدّث الغزالى عن أبى نواس مثلما يتحـدّث عن طفل يعيش فى عصرنا الحاضر فاقـداً أبـاه وأمّه، وهو بلا هـادٍ يهديه ولا حافظٍ يحافظ عليه وهو فى معرض المفاسـد الشـائعة فى هذا العصر وإنّه لا يجد فى نفسـه قدرة ليتجنّب الحوادث وعنده نقود كثيرة وسـبل الاقتحام فى المآثم يسـيرة. ولكنّنا نعلم أنّه كان ذا ذكاوة ونبوغ من أوان طفولته وكان مولعاً بالتعلم، بحيث قرأ القرآن وحفظه وحذّق فى القراءة وأصبح أقرأ أهل البصرة، ولّما شـبّ رغب فى العلـم والأدب. (ابن منظور، ١٩٦٦م، ج٣: ١٠) بل إنه كان يشـعر بالمسـؤولية وأثبتها بقيامـه بالعمل عند عطّار فى النهار وبالحضـور فى حلقات الدرس عند المسـاء. (ابن منظور، ١٩٩٥م: ١٥) فليسَ صحيحا قولُ البعض حيث يقول: «ولعلَّ الفتى ارتاحَ فى دخيلة نفسه إلى ما صار إليه من مطلق الحرية.» (صدقى، لاتا: ٢٣) بل إنّه كان يشـعر بأشد نوع من المسـؤولية عند العمل والدرس، فنجح فى هذين المجالين. والغزّالى يعترف بهذا لاهتمام والجدّ إذ يقول: «وكان الحسن من الذكاء، والنّهم الشديد للعلم بحيث لا تفوته ليلة لم يركب ظلامها إلى المسجد، ولاحلقة لم يجلس إليها، ولا عالم أو راوية، أو محدّث، أو فقيه إلّا استمع إليه، ونقلَ عنه.» (الغزّالى، ١٩٥٣م: ى) ولكنّه مع الاعتراف بهذه الرغبة فى العلم والأدب، يقوم بسرد قصّة خيالية من عنده ويقول: «وجَد الحسـنُ نفسـه حّراً طليقاً، لا تربطه بالبيت تلك الصلة العميقة التّى يحسُّ بها كلّ طفل فكان لا يأوى إلى البيت إلاّ إلماماً، ولا يأتى إليه إلاّ لينام، فيستريحَ من تعب النهار فى دكّان العطّار، ومذاكرة الليل فى المسـجد الجامع، وكان الفتى الصغير أحسَّ بأنّه مخلوق لغير العمل الّذى أرادته له أمّه ليجعَلَ منه وسـيلةً للعيش، وسـبباً للكسـب.» (المصدر نفسه: ى) ولا يخفى على الباحث، عند التوغّل فى الموضوع، بأن كلّها تحليل نفسانى لا

يمسّ بشخصيّة أبى نواس. ولكنّ الناقد فرض على نفسه أن يصل إلى نتائج مقدرّة التى أدركها مِن خلال ظاهر خمرياته. وفى الحقيقة كتب الغزالى سيرة أبى نواس استدلالاً بما يفهم من شعره، وهو المجون والفسق والفجور، فلابدّ للنّاقد أن يجد طريقا يدلّ على استعداده من أوان الطفولة لِلانحراف الشديد ويدلّ على يأسه من تلك العيشة وبحثه عن اللّذة. ولِهذا، لاتمام القصة يربطه بجماعة سوء تسوقه إلى المآثم، فيتابع القول ويقول: «وضلَّ على هذا النحو ردحاً من الزمن، كان خلاله يختلط بالأحداث، والمراهقين من ناشئة الأدب والمتعلّمين، وقد أعجبهم ظرفه، وأسرهم جماله، وراعهم ما عليه من ذكاء وسرعة خاطر، وحببّه إليهم ما كان فيه من ميل إلى الدّعابة، واقتدار على الفكاهة، وفطنة إلى بواعث الضحك، وجنوح إلى معابثة للشيّوخ والمتزمتّين وذوى الوقار. وقد أخذ النّواسى فى هذه الفترة يلتمس أسباب العطف، وقد فقده فى البيت، ويرتاد مواقع الصداقة بروحٍ جائعة وقلب ظامىء وبدأ يتعاطى الخَمر مع أترابه.» (المصدر نفسه: ى- ك) ثم يشير الغزّالى إلى التقائه بوالبة بن الحباب الأسدى، الشاعر الماجن، وبعد ذلك يتحدث عن إخفاقه فى حبّ حبيبته "جنان" ويأسه من الظفر بها حتّى يصل إلى نتيجة مقدّرة فيقول: «وعلى الرغم مِن أنّ أبانواس قد انساق فى المجون بدوافع كثيرة فإنّ الدافع اللّاشعورى الّذى أنشأهُ فى نفسه، إخفاقه فى الحّب وفى الحصول على "جنان" كان أقواها جميعا وأشدها توشّجا بنفسه. فلم يكن هذا الصخب المستّمر إلاّ محاولة لِإسكات هذا الصراخ العاطفى الحبيس فى أعماقه، ولَم يدمن الخمَر هذا الإدمان إلاّ لأنّه كان يريدُ أن ينسَى وأن يقتل همومه التى تعتلج فى صدره.» (المصدر نفسه: ع- س) ولإثبات رأيه هذا يستدلّ بظاهر بعض خمرياته الّتى تشير إلى لجوئه بالخمر. والواضح أنّه لتلك الأبيات فى كثير من الأحيان معان أخرى غير المعانى التى يفهمها الغزالى. وإن نجعل هذا الأسلوب طريقة فى تفسير أشعار الشعراء لا تُصان قطعة شعرٍ من التحريف وسوء الفهم. يعتقد الغزّالى أن لهذا الحب - حبّ جنان - دور هام فى حياة أبى نواس وفى توجيه شعره، حيث يقول: «إذن فقد أجهزت هذه التجربة على كلّ صلة تربط أبانواس بالمرأة، فلم يعد يحسّ بهذا العطف الغريزى الذى يكون بين الرّجل والمرأة، ولِما كان هذا العطف ضروريا لِلإنسان، ضرورة الماء، والهواء، والطّعام، فقد تلمسهُ أبونواس ولكن

فى جنسه.» (المصدر نفسه:ع) ويعتقد الكاتب بأن إخفاق أبى نواس فى حب "جنان" يساوى إخفاقه فى حبّ المرأة وسبب ذلک يعود إلى تفضيله الذكر على الأنثى. وقد أوجد هذه العقدة النفسية التى تصرّفت مشاعره وتحدّدت علاقاته بالناس وقد جعلت له فى المرأة والحياة فلسفة خاصّة فيستنتج: «ومن هنا يتّضح لقارئ غزله سبب تفضيله الغلمان على النّساء، ويتّضح له أيضا لماذا كان شعره فيهم اكثر من شعره فيهنّ ولماذا كان يخشى المرأة ويتجنّبها ويذمُّها ما استطاع إلى الذّمّ سبيلاً.» (المصدر نفسه: ف- ع) يقوله الغزالى فى حالة يرى الكثير من الباحثين أنَّ غزله فى المؤنث ولا سيّما فى "جنان" من أحرّ غزلياته كما يعتقد عباس محمود العقّاد، حيث يقول: «إنما جزم بعض النقّاد برجحان غزله فى المذكّر على غزله المؤنث، لأنّهم ساقوا أنفسهم اضطراراً إلى هذا الترجيح وفرضوا فرضَهم الأوَّل بغير فهم لحقيقته. ثم ألزموا أنفسهم نتائجه عن اعتساف لا دليل عليه.» (العقّاد، لاتا: ١٦٩) ثم ينتقل الغزالى إلى خمريات أبى نواس، تلک الّتى جعلته فريدا بين شعراء عصره والعصور الّتى جاءت بعده، ويقول: «أنها أقوى ما كتبه شاعر فى الخمر.» (الغزالى، ١٩٥٣م: ف) ولكنّه يعتقد: أنّ «الخمر الّتى يشربها أبونواس، خمر حسّىٌ ما فى ذلک ريب.» (المصدر نفسه: ص) إنه لا يقف عند هذا الحدّ لأنّ الاكتفاء بهذا القول لا يفسّر أكثر خمريات أبى نواس، فيجتاز الحدود المعروفة ويقول: «ولكنّه من فرط شغفه بها وتقديسه لها قد انتقل بها من "الحسيّة" إلى "المعنوية" فجعلها "فكرة" شائعة تحسّ بها الروح.» (المصدر نفسه: ص)

ومن وراء كّل ذلک يصل إلى النتيجة المقدّرة المفروضة التى قد وصل إليها من قبل، وهى حصيلة فهمه عن خمريات أبى نواس، فيقول: «وإذا كان أبونواس قد وصل فى حبّه للخمر إلى هذا الحدّ لا نسمّيه عشقاً فحسب، بل نسمّيه عبادة وتقديساً، فالّذى نعتقده أنّ وراء هذا الشعر روحاً قلقة معذّبة تبحث عن سعادتها فى فرح الحياة، وتبتعد جهد طاقتها عن الألم، وتستقبل الدنيا بالضحک والسّرور، بعد أن استقبلتها بالتجهّم والعبوس. وإنّ هذا الاستغراق فى البحث عن الفرح وأسبابه، ليجعلنا نلمس مقدار ما كان يحسُّ به من شقاء باطن ويأس عميق، وحزن دفين.» (المصدر نفسه: ص)

هذا هو أبونواس وخمرياته من منظر أحمد عبدالمجيد الغزّالى. إنّه عالج حياة أبى

نواس متمسكاً بظاهر أشعاره؛ فيرى فى شخصيته كثيراً من العقد النفسيّة بسبب إخفاقه فى حبّ "جنان" وبالنتيجة فى حبّ المرأة، فالخمر وسيلة لتبديد الأحزان. قام الغزالى بتحليل شخصية أبى نواس وشعره تحليلاً نفسيّاً، ولكنّه، على حسب رأينا، أخفق فى تحليله هذا كلَّ الإخفاق لتورطه فى المغالطة الزمنية والتحليلية النفسية.

ولقد كتب الكثيرون، دون الغزالى، عن التجربة الخمرية عند أبى نواس وعالجوها وطرحوا آراء شتّى لإيضاح شخصيته وتفسير نفسيته من خلال الخمرة. منهم: الدكتور محمّد النويهى. إنّه يرى أنّ الخمرة عند أبى نواس كانت تعويضا عن حرمانه من عاطفة الأمومة إذ يقول: «ما نظنُّ أبانواس فى ظروفه الخاصّة قد استطاع أن يحلّ هذه العقدة، بل نعتقد أنّه بقى طوال حياته يحترق بهذه النار الآكلة، والسبب أنّ أمّه خانته وهجرته، وهى ذكرى كلّما استثيرت فى عقله الباطن هاجت غيرته وأسعرت نارها. وهنا قدّمت له الخمرة، هذا الإرضاء الّذى نعنيه، فهى أنثى ولكنّها أمّ أيضا، وهو يستطيع أن يواقعها، فيرضى بذلك نزوعه الفاسق.» (النويهى، ١٩٥٣م: ٤٤) والمشهود من كلام النويهى أنّه قد اعتمد على الأخبار الحافلة بالغموض والتناقض حول أمّه. وإن تكن هذه الأخبار صحيحةً لا تدلّ أيضاً على إثارة العقد النفسية بتلك الصورة الصاخبة فى شخصية أبى نواس، وكما شاهدنا أنّها لم تؤثّر فى تعلّمه وبراعته فى العلم والأدب. ولكن النويهى لم يقف عند هذا الحدّ ويحلّل شخصيته وأبعاد تعلقّه بالخمر كاشفاً شيئاً جديداً إذ يقول: «حين نزداد تأمّلاً فى عاطفة أبى نواس نحو الخمرة نستكشف ظاهرة غريبة لم أجد أحدا من نقّادنا المحدثين من اهتمّ بدراستها وأدرك مغزاها، وهى شعوره الجنسى نحو الخمر. والّذى صرفهم عن أن يدركوا أهميّة ما يقوله فى هذا الموضوع أنّهم أخذوا كلامه على أنّه مجاز من القول. مجرّد تشبيهات أو استعارات ووسيلة صناعية من وسائل الظُرف ... ولكنّهم جميعا لم ينتبهوا إلى أنّ أبانواس إنّما يصف حقيقة واقعة نجدها فى تكوينه الجنسى العجيب. فأبونواس قد أحسّ نحو الخمر بإحساس جنسى. نعنى أن الخمرة هاجت فيه شهوة المواقعة، لا مواقعة النساء أو الغلمان، بل مواقعة الخمرة وأنّ شربَها أرضاه إرضاءً جنسيا.» (المصدر نفسه: ٤٤) والواضح كيف أنّ النويهى قد اعتمد فى نظرته إلى شخصية أبى نواس على علم النفس التحليلى مستندا على نقطة هامّة فيه وهى الإرضاءات

الثانوية وعلاقتها بما يسـميّه علماء النفس "الاسـتبدال الجنسـي". ولكننّا نعلم أن هذا الاستبدال الجنسى يحدث لمن لا يوجد عنده الاستطاعة الجنسية وهو محروم عن مواقعة النساء. والحال ما كان أبونواس يتجنّب النساءَ، بل كان له حياة أسرية طيبة، وإن أنكر البعض أن يكون له هذه الحياة، ولكنه يشـير إلى قضاياه الأسـرية فى قصيدته المعروفة عند رحلته إلى مصر حيث يتحدث عن رد فعل زوجته والأجواء السـائدة عند الرحلة بعاطفة صادقة إذ يقول:

«تَقولُ التى عَن بيتِها خفَّ مركبى عزيـزٌ علينـا أن نَراكَ تَسـيـرُ
أمـا دونَ مصـرٍ لِلغِنى مُتطلَّبٌ بَلَـى إنّ أسباب الغِنـى لَكثيرُ
فَقُلـتُ لَها واسـتعجَلتها بَوادرُ جَرَت فَجَـرَى فى جَريهِنّ عبيرُ
ذَرينى أكثّر حاسـديكِ برِحلةٍ إلى بلـدٍ فيه الخصيبُ أميرُ»

(الديوان: ٤٨١)

وقد مدح الخصيب خلال هذه القصيدة وقصائد أخرى، فأنعم الخصيب عليه وأغدق، فلبث هناك حوالى سـنة حتـى نهاية حكم الخصيب، وكانـت آلام الهجرة والبعد عن الأسرة تعصر قلبه، فقرّر مغادرة مصر والرجوع إلى بغداد. كما يقول فى ذلك:

«ذكـر الكـرخَ نازحُ الأوطان فَصَبَـا صَبـوةً ولاتَ أوانِ
ليس لى مسعدٌ بمصر على الشو ق إلـى أوجُهٍ هناك حِسـانِ
نازلات من السـراةِ فكرخا يا إلى الشطِّ ذى القصور الدوانى»

(الديوان: ٤٧٦)

إلى أن يبشّـر ابنته بالإسـراف فى كل شـىء والإنفاق، على أنّه عائـد إليها بالمال الكثيرحيث يقول:

«يـا ابنتى أبشِرى بميرة مصـرٍ وتمنّـى وأسـرفى فى الأمانى»

(الديوان: ٤٧٧)

إذن فلا محلَّ لِمثل هذه العبارات الّتى وردت فى كتاب النويهى: «فالخمرة متّصلة أوثق الاتّصال بتكوينه العصبى وبنائه النّفسـانى، وهى مرتبطة أعمق ارتباط بعقده النفسية التى تكوّنت فيه منذ طفولته. وقد وجدَ فى حلّ هذه العقد وتفريج أزماته العاطفية التى نشـأت

عنها، وجدَ فيها التعويض عن الحب الجنسى الطبيعى الّذى يحقّقهُ الرجال العاديو التكوين مـع النسـاء. ووجدَ فيها العزاء والسَـلوى الّذى حرّمه من الحنان الأمـوى.» (النويهى، ١٩٥٣م: ٩٦) وذلک حينما نحن لا نشُّـک فى صحة أبى نواس النفسـية والعقليّة وحياته العائليـة، ولم تصل إلينا حتى الآن من روايات تدلّ على عدم صحّته النفسـية، بل، على العكس، كثرة علمه وأدبه وذكائه وغزارته وسـيادته فى الشعر يدّل على صحّته الجسمية والنفسـية. وفضلاً عن ذلک نتساءل كيف يمكن أن تكون الخمرة بديلاً من الأم والزوجة؟ أنحن نتكلّم عن موجود غير بشرىّ أم نتحدث عن إنسان شاعر وشاعرٍ شهير؟

خلاصة القول إنّ النويهى يفترض فيه وضعاً شـاذّا يحيط بشـخصية أبى نواس وإنّه يعتمد فى تحليله على بعض الروايات المشـبوهة ومنها التى طعنت بأمّه وكانت حسـب رأيه سـبباً مباشـراً فى خلق عقده النفسـيّة التّى أحاطت به. وليس لدينا أىّ شكّ فى أنّ حملة التشـهير بأمّ أبى نواس هى حلقة من حلقات هذه الحملة ضدّه. والسّـبب أنّ أبانواس كان يعتنق بأفكارٍ تميل إلى الحرّية وأنّه كان شـاعر الناس ولا شـاعر البلاط، إلا أنه صحب الأمين مدة قصيرة. فلهذا واجه أبونواس عدداً كثيراً من حملات التشهير والتشـكيک من جوانب شتّى تختلف غايات هذه الحملات ومراميها: (الزعيم، ١٩٨١م: ١٧٥)

الاتّجاه الأوّل: يتعلّق باتجاهه الفكرى والأدبى وبمذهبه الجديد فى الشعر الذى تمثلت فيـه ثورتُه على منهج القصيدة والنظام الشـعرى القديم، فخالفه الشـعراء الذين كانوا يحافظون على المنهج القديم وبثّوا دعايات كثيرة ضده.

الاتّجـاه الثانى: يتعلّق بعدد من الشـعراء المعاندين لـه، والذّين لهم موقفهم الصريح المؤُيـد للحكم العباسـى والمعارض لِآل البيـت. ومن هؤلاء الشـعراء: مروان بن أبى حفصة، وسلم الخاسر، والرّقاشى وأبان عبد الحميد اللاحقى، شاعر البرامكة.

الاتّجـاه الثالث: مدعوم بالخلفاء والأمراء والوزراء، والذين كان لهم وَضعهم الطبقى والاجتماعـى الخاص إلـى جانب ما يتمتّعون به من نفوذ سياسـى، وفى الحقيقة كانت لهم شـخصيتان: الأولى هى الشـخصية الرسمية عند الناس تحافظ على العفّة والطهارة والرزانة، والثانية شـخصية عابثة ماجنة تَظهـر فى خلواتهم. هؤلاء إذا حضروا مجالس

الأنس والطرب مع الغلمان والجوارى والمغنّين، جادت قريحتهم بشعر مُسّف فاحشٍ نسبوه إلى أبى نواس خوفاً من قدرهم وموقعهم الاجتماعى والسياسى، كما ورد فى بعض المصادر: «العامة الحمقى قد لهجت بأن تنسِبَ كلّ شعرٍ فى المجون إلى أبى نواس، وكذلک تصنع فى أمر مجنون "بنى عامر" كل شىء فيه ذكر ليلى تنسبه إلى المجنون.» (ابن المعتز، ١٩٩٨م: ١١٤)

الاتجاه الرابع: وهو تهرّب أبى نواس من هذه المجالس الرسمية لاتّجاهه الفكرى والعقيدتى والدينى. وهذا هو أبونواس يقول: «إنما يَصبر على مجالسة هؤلاء الفحول المنقطعون، الذّين لاينبعثون ولاينطقون إلاّ بأمرهم. والله لكأنّى على النّار إذا دخلتُ عليهم حتى أنصرف إلى إخوانى ومن أشاربه، لأنى إذا كنتُ عندهم فلا أملک من أمرى شيئا.» (المصدرنفسه: ٢٣٤) وتتّضح لنا قضايا كثيرة عند النظر فى قول أبى نواس حيث يقول: «لا أكادُ أقول شعراً جيداً حتّى تكون نفسى طيبة.» (ابن منظور، ١٩٩٥م: ٤١) كان الخلفاء والأمراء يتمنّون أن يكون أبونواس فى بلاطهم ويتقرب إليهم، ولكنه كان بمعزل عن البلاط وكان ميلُه إلى الناس وميل الناس إليه: «... فصار مثلاً فى الناس وأحبّه الخاصة والعامة، وكان يهرب من الخلفاء والملوک بجهده.» (ابن المعتز، ١٩٩٨م: ٢٣٤) و«لم يكن شاعر فى عصر أبى نواس إلا وهو يحسده لميل الناس إليه وشهوتهم لمعاشرته ولبعد صيته وظرف لسانه.» (ابن منظور، ١٩٩٥م: ٤١) ولا يخفى على الباحث ميله إلى الشعوبية وذلک كلّه مما لا يؤهّل شاعراً بأن يكون قريبا من الخلفاء والحكام.

الاتّجاه الخامس: هذا هو ما عاناه كثيراً وأصبح سبباً أن تكثر الأقوال فيه كما جاء فى أحواله: «كان دمثاً، لطيفاً، ظريفاً، حلو المعشر، حسَن الوجه، رقيق اللون، أبيض، حلو الشمائل، ناعم الجسم.» (المصدرنفسه: ١٥) وكان «فصيحَ اللسان، لطيف المنطق، مليح الإشارة، وظرفه كان من أهمّ ما تتميّز به شخصيته.» (ابن المعتز، ١٩٩٨م: ٢٢٨)

ولعلّ اتجاهه هذا إلى الهزل والدعابة إلى جانب ما تمتّع به من جرأة وحرية فى قول ما كان يخطر بباله جَعَل الكثيرين ينسبون إليه النوادر والسلوک الماجن والشعر الفاسق. ولهذا نرى فى ديوانه كثيراً من الأبيات لا تحمل خصائص أبى نواس؛ ولكن ظرفه وهزله كان أشدَ من الجّد، وكما نعلم الجد المخبوء تحت الهزل هو أشد من الجدّ

الظاهر. وهو الذى يقول عن نفسه: «وأمّا المجون، فما كلّ أحد يحسن أن يمجن، وإنّما المجون ظرفٌ ولست أبعدُ فيه عن حدّ الأدب. ولا أتجاوز مقداره.» (ابن منظور، لاتا، ج٣: ٢٠١) ويؤكّد هذا القول قوله الآخر ممّا نقله محمد بن أبى عمير: «سمعتُ أبا نواس يقول: والله ما فتحتُ سراويلى لحرام قطّ.» (ابن عساكر، ١٣٣٢ق: ٢٦٤)

هذا هو أبونواس كما يراه الدكتور محمّد النويهى، ولكنّ الأستاذ عبّاس محمود العقّاد قد عرف ضعف هذه التحليلات بسعة معلوماته وكثرة غوره فى القضيّة قائلاً: «أيسر ما يقال فى كلمة واحدة أنّه إباحّى. ولكنّ الإباحى قد يخفى رذائله وموبقاته وقد يدارى الناس ويتّسم بينهم بسمة الصلاح والتقوى ولعّل الأكثريّين من الإباحيّين فى عصر أبى نواس خاصّة كانوا على هذه السنّة، لأنّه كان، باتّفاق واصفيه، عصرشكوك واختلاط ونفاق.» (العقّاد، لاتا: ٢٩) إنّه يطرح المسألة ثم يرفضها قائلاً بأن المسألة ليست بهذه السذاجة، ثم يتابع قوله ويقول: «وأيسر ما يقال بعد ذلک أنّه إباحّى متهتکّ. يظهر أمره ولا يتكلّف لإخفائه ... وهذا يكفى للصّدق فى وصفه على حقيقته ولكنّه لا يُغنى شيئا إذا كان المقام مقام دراسة نفسية.» (المصدر نفسه: ٣٠-٢٩) فلابد له أن يبحث عن أسباب أخرى تفسّر آفات أبى نواس كلّها. الآفات التى أحاطت أبانواس - على رأى العقّاد - بصورة شاذّة. ولكن سعةُ معلوماته وكثرة ثقافته تقعه فى خطاءٍ أعظم من خطاء الغزّالى والنويهى، فيقول: «وإنّما تفسّر آفات أبى نواس جميعا ظاهرة نفسية أخرى هى "النرجسيّة" - وفيها تفسيرٌ لآفته الكبرى وتفسير لآفته الصُغرى التّى تتفرّع على جوانبها، هذه النرجسيّة شدوذٌ دقيقٌ إلى ضروب شتّى من الشّذوذ فى غرائز الجنس وبواعث الأخلاق. ويلتبس الأمر من أجل هذا بين النرجسية وتلک الضروب المختلفة من الشذوذات الجنسية.» (المصدر نفسه: ٣٤-٣٣) والعجيب أنّ الأستاذ عباس محمود العقّاد قد اعتمد أيضا فى تحليله لِشخصية أبى نواس على الروايات الضعيفة التى تدلّ على نسبه ونشأته، ولا سيّما على الروايات الضعيفة التى تطعن بأخلاق أمّه وتنسبُ إليها الانحراف الخُلقى. ونحن لا نعتقد بصحّة هذا الأمر، لأن الخبر الوحيد الذى اعتمد العقّاد عليه فى إطلاق الأحكام ضد أم أبى نواس هو تلک الأبيات المذكورة لِأبان بن عبدالحميد اللاحقى، شاعر البرامكة، ونحن أشرنا إلى العداوة بينه وبين أبى نواس.

وليس الطعن بأخلاق امرأة قد فقدت زوجها أمراً عجيباً، كما هى الحال وقد يذيع الأعداء أخباراً غيركريمة حولها وحول أبنائها، إما بسبب العداوة لها، أو بسبب العداوة لأولادها. لنستمع إلى العقّاد كيف يفرض على نفسه أن يحكم فيما هو يسمّيه بعقدة النَسَب بسبب ما قيل عن أمّه ويقول: «إنّ هذه العقدة كانت من أقوى بواعث أبى نواس على معاقرة الخمر وألفة مجالسها واختيار المجالس التى لا تسمع فيها المفاخرة بالأنساب ... ولكنّها تُعابُ على ألسنة الُظرفاء والأحباب.» (المصدر نفسه: ١٠٠) وفى الحال نحن نعلم بأن أصل النَسَب يعود إلى الأب دون الأم ولاسيّما عند العرب. وكان أبونواس يمنياً عريق النسب يتعصب لقحطان على عدنان وقد أشار إليه وافتخر به عدة مرّات وله فيهم أشعار كثيرة يمدحهم ويهجو على أعدائهم وعلى عدنانيين، ومن قوله:

«لَيسَت بدارٍ عَفَت وغَيَّرها
ضربانِ من قَطرها وحاصبِها
بل نحن أربابُ ناعطٍ ولنا
صنعاءُ والمسكُ من مَحاربها

حتى يقول:

فافخر بقحطانَ غير مكتئبٍ
فحاتمُ الجود من مناقبها»

(الديوان: ٥٠٨-٥٠٦)

يقال: أطال الرشيد حبسه بسبب هذه القصيدة. (المصدر نفسه: ٥٠٦)

وفى قصيدة أخرى يقول مفتخراً بقحطان:

«لِمَن الديارُ تسربَلتْ ببلاها
نَسِيَتْكَ ربّتُها وما تنساها
لِتزورَ من قحطانَ قرْمَ مُغاولٍ
لامعجباً صَلِفاً، ولا تيّاها
خضعتْ لعثمان بن عثمانَ العُلى
حتى تسنّمَ فوقها فَعَلاها

وكذاك عكٌّ لاتزال سيوفها
تنهلُّ مِن مَهَجِ الكُماةِ ظباها»

(الديوان: ٤٩٦)

"عـكّ" قبيلة يمانيّة؛ وإنّه يفتحر بقحطانيين فى أبيات كثيرة أخرى لايمكن ذكرها. فلا شـك فى انتماء أبى نواس لليمانية ولقحطان من جانب الأب كما يؤكد عليه أبونواس نفسه.

وأمّا النرجسـية الـتى يعتقد العقّاد أنها تفسِّـر آفات أبى نواس كلّها، فتنقسـم إلى قسـمين على حسـب رأيه: الأوّل هو "الاشـتهاء الـذّاتى" والثانى "التّوثـين الذاتى". فالاشـتهاء الذاتى يغلب على الحالات الجسـدية، والمُصاب به يشـتهى بدنه كأنّه بدن إنسـان غريب، ولكنّه فيه شهوة يبالغ فيها المرض. والتوثين الذاتى يغلب على الحالات العاطفيـة والفكرية. فيتّخذ المُصاب به من نفسـه وثنا يعزّه ويعبـده. والعقّاد يعتقد بأنّ هاتـين الحالتـين لا تنطبقان على أبى نواس بصـورة واحدة ويقول: «فالشّـذوذ الّذى يميل بصاحبه إلى عشـق أبناء جنسـه والعزوف عن الجنـس الآخر، لاينطبق على أبى نواس، لأنّه يُغازل الجوارى كما يغازِل الغِلمان، وكلامه كثير فى استحسـان الفتاة لأنّها كالغلام، واستحسان الغُلام لأنّه كالفتاة.» (المصدر نفسه: ٤١) فلا بّد له أن يصنع معجونا من هاتين الصورتين للنّرجسـّية ويقول: «وتلازم الاشـتهاء الذاتى والتوثين الذاتى معا لـوازم متفاوتة فى درجـة الالتصاق بالآفة وتوابعها، فمِن أبرزهـا وأقواها التّلبيس أو التشخيص "Identification" ومنها لازمة العرض "Exhibitionism" ولازمة الارتداد "Centripital Regression". (المصدر نفسه: ٣٩) إنّه يقوم بشرح ميزات هذه الحالات ويصـل إلى نتيجة مفروضة ويقول: «فتنطبق عليه لازمة العرض كما تنطبق عليه لازمة التلبيس والتشـخيص ولعلّ لازمة العرض أظهر فيه.» (المصدر نفسـه: ٤٦) ونحن نعلم أنّ لازمة العرض تشـمل الإظهاربجميع درجاته، والمصاب به يكشـف عورته ويعرض أعضـاءه ويتعرّى مِن ثيابه، أو يلبس الثياب التى تشـبه العُرى، ولا تسـتر ماوراءها. والحال لم يصل إلينا شـيء من الأخبار يدلّ على هذه الحالات عند أبى نواس. والعقّاد نفسـه يقول: «ولكنّ الأكثر الأعـمّ فى لازمة العرض أنها، لا تمعِـن هذا الإمعان إلاّ فى

حالة الجنون وما يقاربه.» (المصدر نفسه:٤٠) والمشهور أنّ أبانواس كان ذا صحة نفسية وعقلية ولم يسمع عنه غير هذا.

هــذا هو بعض الآراء الّتى طرحها العّقاد حول شــخصية أبى نواس وخمرياته. وإنّنا فى خلال تتّبعنا لما قاله العقّاد، نرى أنّه قد جعل من هذه الشخصيّة بؤرةً للعقد والآفات الجنســية، ونعتقد أنه فى تحليله هذا – رغم ســعيه إلى الإمســاك بشــخصية أبى نواس والتغلغل فى أعماقها – لم يســتطع حتّى يلمس أطراف هذه الشــخصية. والسّببُ هو أنّه فرض على نفسه أن لا يوجد فى خمريات أبى نواس إلاّ الخمر الحسّى والمجون وعرض الحالات الجنسية بسبب خيانة الأم وضعف النسب ونشوء العقد النفسية. وهذا الفرض هو الســبب الرئيســى لوقوع الغزّالى والنويهى والعقّاد فى الخطاء وسوء فهمهم عن أبى نــواس وخمرياتــه. وفى رأينا ظاهرة العــرض الّذى يتكلّم عنه العقــاد، يمكن أن يكون صحيحاً، ولكن لا بمعنى عرض الحالات الجنسية، بل بمغى عرض الحالات الاجتماعية والسياســية التى تمــوج فى جوفه وتبحث عن طريق للخروج وهــى مقابلة ومناضلة لِما كان يجرى آنذاك وكان الســكر والتماجن والتجانن الآلات الثلاث لِلإظهار والعرض وإفشــاء الأسرار ودعوة الناس إلى التنمية والرقّى فى ظلّ حكومة تسمّى إسلامية وفى ظلّ خليفة يســمّى خليفة الله على الأرض وأمير المؤمنين. وهل يمكن أن يكون فى تلك الحكومة دورٌ للناس والشــعراء والأدبــاء والعلماء؟ وهل يمكن القيام بنقد سياســات خليفة يســمّى بأميرالمؤمنين؟ وهل يمكن التكلّم عن حقوق الناس والظلم عليهم؟ وهل يمكن القول إنّه أحفق فى سياساته؟ وألف سؤال آخر من هذا النوع. وكان أبونواس عالما بعواقــب المخالفة وإظهارها، إذ إنّه كان عالما بما فعل الســفّاح بعبدالحميد الكاتب وبما فَعَلَ المنصور بأبى مســلم الخراسانى وابنه وبمحمّد النفس الزكية وبأخيه إبراهيم وبابن المقفع وبــآلاف من المناضلين والمعارضين الذين كان عندهم رأى أو خطر لا بالفعل بل بالقــوة. إنه كانَ عالما بما فعل المهدى بصالح بن عبدالقدوس وبشّــار بن بُرد وبالكثيرين من الشيعة. وكان أبونواس شاهدا حيا على خلافة هارون الرّشيد الذى كان ذا شخصية معقّــدة وخطيرة جدّا. فكان أبونواس عالما بكّل هذه القضايا وما فيها من التقلّبات ولا أكاد أشــكّ أنّه كان ذكيا إلى حّدٍما أن يتّخذ أســلوباً يختصّ به لبيان آرائه وأفكاره فى

زمن أولئـک الخفاء الذين كتموا أفواه الناس وأنزلوا العقاب والعذاب على الشـعراء والأدباء بتهمة الزندقة والخروج من الدين والشريعة. والحكومات الدينية التى تتمسّک بظاهر الدين وتبنى هتافاتها عليه هى من أشـدّ الحكومـات ظلماً وجوراً. وفى الحقيقة إنّها تجعل الدين وسـيلةً لسـلب أموال الناس ونهبها والقضاء على نفوسهم وأرواحهم. عندئذ لا تعدّ المخالفة للحكومة أمرا عاديا فحسب، بل تعدّ محاربة لِلّه ورسوله وجريمتها السـجن والموت. فـكان أبونواس ذكيا إلى حدّ ما أن يتخّذ مـن الخمرة رمزا لبيان ما يتمنّاه فى قوالبه الشعرية. وهذا الأمر متوقّع من الّذى يشعر بالمسؤولية أمام اللّه والناس ويتمنّى إيصالهم إلى مسـتوى نفوسـهم كما يرى على شـلق حيث يقول: «فهو يثور لا ليمكن لحزب، أو يدعو لقومية، أو يستهدف غرضا من أغراض المنفعة المباشرة، بل كان يثور بدافع إنسانى شامل، ليرفع الناسَ إلى مستوى نفوسهم، كما يجب أن تكون لتتناغم مع العصر الذى يعيش فيه أولئک الناس.» (شلق، ١٩٩٥م: ١٥)

وأما ايليا الحاوى، وهو من شـارحى ديوان أبى نواس ومؤلف كتاب "فن الشـعر الخمرى وتطوره عند العرب" فيبنى كلامه على غير الواقع ويقول: «يمثل واقع أبى نواس نموذجاً لواقع العصر العباسـى جميعاً فى الإباحية واضطراب القيم الأخلاقية. فالشـبهة تقع على أصله من جهة والده.» (حاوى، ١٩٩٧م: ٢١١) فى حالة كان أبوه عربيّاً خلّصاً يعـود أصله إلـى اليمنيين القحطانيين. (ابن منظـور، ١٩٨٦م، ج٣: ٨) إنه يواصل قوله ويعتمد على بعض الأخبار السـوء حول أمه ويقـول: «... ووالدته، إثر ترملّها، طفقت تؤوى طلاب المتع والمجان، وربما قضت عيشـة مسـتهترة، لم تقلـع عنها وتتزوج ثانية، إلا بعد أن أسـرف الناس بثلبها.» (المصدر نفسـه: ٢١١) ومن هنا يسـتنتج: «ولقد نشأ أبونواس فى تلک البيئة، يبصر المجان والخلعاء وسائر المرابطين، وهم فى عرس دائم من الإباحية والفجور، فألف تلک الحياة، وانطبعت فى نفسه المراهقة، دون أن يقوى التحرر منها ... فإن الخطيئة الأولى فى شـخصية أبى نواس، كانت خطيئة التربية والنشـأة، إذ لم يشـعر بجو البيت وصرامة الوالد، كما أن والدته أهملته وجعلته يستطلع الحياة ويتدرب على العيش بأسلوبه الخاص. فانحرف فى صباه وانحرفت حياته جميعاً.» (المصدر نفسه: ٢١١) والواضح أنّها تحليل نفسـى لا قيمة لها بالنسـبة لذلک العصر. وكأن المؤلف يحلل

حيـاة أرملـة تعيش مع ابنه فى هذا العصر فى بيتها المتمكـن ولها إمكانياتها للتقحم فى المعاصى والآثام. ولكنه بالنسبة لخمرياته يقول: «خمرته خمرة وجودية، إذا جاز التعبير كخمرة عمر الخيام. إنها وسيلة للخدر من مواجهة المصير.» (المصدر نفسه: ٢١٣) وهذا خلاف ما يعتقده الآخرون ثم يشير إلى بعض أبياته الخمرية ويستنتج أنه لم يكن عربيداً بلغ به الإسـراف والمجون كما يعتقد أكثر نقاده، ويقول: «الشـاعر يشـرب الخمر شرباً موصولـاً لكى يقصر عمره. وهنا تظهر لنا المشـكلة الوجودية بأجلى مظاهرها. فهو لا يشرب للمتعة بقدر ما يشرب للخدر ... فإن طلبه لتقصير العمر يدل على أن الشاعر لا يتنعم بحياته كما يدعى البعض. وإنما يشقى بها ويرذلها.» (المصدر نفسه: ٢١٣) ولإثبات تعبيره يشير إلى هذا البيت الشعرى لأبى نواس:

«أعطنى كأس سلوة عـن أذان المؤذّن»

(الحاوى، ١٩٨٧م، ج٢: ٤٠٢)

ويقول: «إن الكأس التى يطلبها ليست كأس خمرة وإنما هى كأس سلوة ... فالسلوة تعنى أنّ الشاعر لا يشرب الخمرة للعربدة، وإنما لكى يغرق أحزانه ويسلو الشقاء الذى يعانيه.» (المصدر نفسـه: ٢١٤) ثم يشـير إلى أبياته الخمرية الأخرى من هذا النوع لا نذكرهـا مراعاة للاختصار. وهذا تحليل جديد بالنسـبة للنقاد الآخرين الّذين يعتبرونه عربيداً.

وأما الدكتور شوقى ضيف فإنّه يواكب الآخرين ويكرر كلامهم فى أبى نواس مشيراً إلى تأثره بالحضارة الفارسـية المادية التى تسـبب الفسـاد الخلقى على زعمه ويقول: «وأبونواس الحسن بن هانئ هو أهمّ شاعر يصور هذا الفساد الخلقى من جميع نواحيه، وهو فارسـى الأب والأم أيضاً.» (ضيف، ١٩٧٥م، ج٣: ٢٢٠) إنه يؤكد على كون أبيه فارسـى الأصل ويقوم بوصف الحضارة الفارسية بالمادية المفسدة ليتمكن له أن يسرف فى رأيـه على أبى نواس وينسـب إليه كلّ ما يختلج فى فكرتـه وقلبه فى حالة كان أبوه من اليمنيين وكان أبونواس يتعصب للقحطان كما أثبتنا ها من قبل. مع الأسـف إنه لا يكتفى بهذا المقدار ويكرر الأخبار التى تمسّ بسـمعة أمّه والتى لا أسـاس لها، ثم يفسر الخـبر ويقول: «وربما كان من دوافع رحلته مـع والبة بن الحباب وإغراقه –فيما بعد–

فى المجـون أنّـه كانت تؤذيه سـيرة أمّه فى البصرة، فارتحل معـه، وأخذ يعبّ من الخمر كى ينسـى أمّه فهو كان كالمسـتجير من الرمضاء إلى النار، فقد وقع فى حبائل شـيطان كبير،غمسـه فى كلّ مايقع فيه من خطايا وآثام.» (المصدر نفسـه: ٢٢٢) وفى الحقيقة إنّه يلوك ما قاله الآخرون دون أن يكون فى كلامه شـىء جديد. ولكنه يعترف بفضل أبى نـواس وعلمه وذكائه وعبقريتـه ظانّا أن خمرياته هى مرآة لحياته الشـخصية دون أن تكون مرآة لحياة المجتمع.

وأمّـا هذا هو حنّا الفاخورى الـذى يتابع قول العقّاد والغزّالى والنويهى وشـوقى ضيف، فيفرط القول فى أبى نواس ويقول: «ولم يحبّ أبونواس الخمرَ كما أحبّها الأعشى والأخطل، أى لم يعتبرها وسـيلة إلى الفرح والنّشـوة فحسـب، بل زاد على ذلك أنّه أحياها ورأى فيها شـخصاً حيّاً، لا على سبيل المجاز، بل على سبيل الحقيقة، فإنّه رأى فيها حياةً عندما رآها تُغلى وتفور وتضطرم، وتتألّق ائتلاقا وتسـرى فى الجسم سريانا وتبعث فيه الحرارة والنّشـاط، كما تصبغ العينـين والخدّين بحمرة الدم، فهى ذات روح يحاول أبونواس أن يستلّها من الدّن ليجعل فى جسمه روحين، وهى كائن أشبه بكائنات عـالم الأفلاك، إذهى مـادّة روحانية.» (الفاخورى، لاتا: ٦٩٩) ولا يقف عند هذا الحّد ويعتقد أنّ أبانواس كان يرى فى الخمرة حباً خاصاً كحب العاشـق للمعشـوق ويقول: «كانت الخمرة لأبى نواس شـقيقة روح، فأحبّها حبّ العاشـق للمعشـوق، حبّ الزّوج للزّوجة ووجّه إليهاجماحه الجنسـّى، ووصفها بجميع صفـات الأنوثة، وراح إلى بائعها يخطبهـا، ويدفع المهـر، ويخاطبها فتخاطبه، ويقيم لها حفـلات الزفاف بكلّ ما أوتى من اندفاع وفنّ وراح يسـكب ليجد راحة نفسـه، فأصبحت روحه وأصبحَ والخمرةشخصا ًواحداً، لايسـتطيع الانفصال عنها وصـبّ فيها كلّ فكره وكلّ قلبه وأرادالحياة كأسـا وسـكرة.» (المصدر نفسـه: ٧٠٠- ٦٩٩) والواضح أنّ الفاخـورى اعتمد على ظاهر خمرياته ولا يرى فيها شـيئا غير الخمرة الحسـّية، فلا يسـتطيع تحليله وتحليل خمرياته. فإذن يأتى بآراء عجيبة وشـاذّة. إنه يتكلّم عن أبى نواس كأنه لا يتكلّم عن إنسان، بل كأنّه يتكلّم عن موجود خيالى ما عرفناه حتى الآن. يقوم الفاخورى بطرح هذه الآراء السخيفة دون أن يتساءل نفسه ما هو معنى إقامة حفلات الزفاف بالخمر وما هو معنى

حــبّ الخمرة كالزوجة؟ إنّه لا يكتفى، مع الأســف، بهذا الحدّ مــن الكلام فيأتى بآراء أسخف ويقول: «إنّه رأى فى الخمرة شيئا من الألوهة ورآها فوق النار التى كان الفُرس يعبدونهــا، ورآها فوق معبودات الناس أجمعين، حتّى كادت تنســيه اللّه تعالى، ووصفها بصفات الذّات الإلهيّة، وجَعَلَ لها آلاءً وأسماء حُســنى.» (المصدر نفسه: ٧٠٠) والواضح أنّ الحقد الدفين بارز فى كلام حنّا الفاخورى عندما يتكلّم عن الإيرانيين. فلهذا فى أوّل كلامــه عندما يتحدث عن نشــأة أبى نواس يقول: «ولد من أبوين فارســيّين» (المصدر نفسه: ٦٩٢) وهذا خلاف لما هو المشهور والّذى أثبتناه من قبل. يقوله الفاخورى ليبنى عليه ما يتمنّاه عن طريق ازدراء الإيرانيين وثقافتهم القديمة.

هذا هو أبونواس، كما يراه بعض نقادّه المعاصرين، معانيا من عقده النفسية، معوضّا عن اشــتهائه الجنســى نحو الخمرة، متخذاً من مواقعة الخمرة بديلاً عن أمّه وبديلاً عن إلــه ذات قدر، مســلّياً أحزانه وما إلــى ذلک. ونحن لا ندرى على أى أســاس اعتمد النقّــاد على هذه العُقد، حينَ أنَّ جميع المصادر والمراجع تؤكّد صحّتَه النفســية والعقلية. وتلک الأوصاف والعقد المنســوبة إليه بصورة ســاخرة لا تنطبق على أىّ إنسان فضلاً عن تنطبق على شــاعر كبير كأبى نواس الذى يعترف جميع النقاد القدامى بعلمه وأدبه وذكائه وبراعته فى الشعر واللغة،كما يعترف به بعض النقاد الجدد أنفسهم الذين أفرطوا فيه: «وأبونواس –على الرغم من مجونياته– يعدّ من أعاجيب عصره فى الشــعر، إذ كان يحظى بملكات شــعرية بديعة، وهى ملكات صقلها بالدرس الطويل للشعر القديم واللغة العربية الأصيلة، حتى قال الجاحظ: ما رأيت أحداً أعلم باللغة من أبى نواس.» (ضيف، ١٩٧٥م، ج٣: ٢٢٧)

وفى الحال نرى أنّ الدكتور طه حســين يرى شــيئا آخر فى خمريات أبى نواس حيث يقــول: «علــى أنّ من الحق أن نعرف لأبى نواس شــيئاً غير هذا الفســق والإغراق فى المجون وهو التوفيق بين الشــعر وبين الحياة الحاضرة، بحيث يكون الشــعر مرآة صافيةً تتمثّل فيها الحياة، ومعنى ذلک العدول عن طريقة القدماء لأن هذه الطريقة كانت تلائم القدمــاء وما ألفوا من ضروب العيش، فإذا تغيرّت ضروب العيش هذه، وجب أن يتغيّر الشــعر الذى يتغنّى بها، فليس يليق بساكن بغداد المستمتع بالحضارة ولذاتها أن يصف

الخيام والأطلال أو يتغنّى الإبل والشـاء، وإنّما يجـب عليه أن يصف القصور والرّياضَ ويتغنى الخمرَ والقيان. فإن فعل غير ذلک فهو كاذب متكلّف. أراد أبونواس أن يشـرع للنّاس هذا المذهب فجدّ فيه ووفقّ التوفيق كلّه، واتّخذ وصف الخمر وما إليها من اللذّات وسـيلة إلى مدح طريقته الحديثة وذمّ طريقة القدماء.» (حسين، ١٩٧٦م، ج٢: ٩٠) إنّه يواصل كلامه ويضيف: «فهو ليسَ مذهباً شعرياً فحسب وإنّما هو مذهب سياسى أيضا.» (المصدر نفسـه: ٩٠) ويؤكّد طه حسـين: «أنّ شعر أبى نواس فى الخمر لم يكن هزلاً كلّه، ولم يكن الغرض منه المجون وحده، أو الإسـراف فى وصف اللّذات وإنّما كان أبونواس يتخّذ الخمَر وسـيلةً إلى شىء من الجدّ، له خطره فى الأدب، ووسيلة إلى شىء آخر من الجـد، لـه خطره فى غير الأدب.» (المصدر نفسـه: ٩٤) وفى تأييد هذا الرأى، وأكثر من ذلک نقول: إن الشعر الخمرى كلّها جدٌ؛ ونذكر ما صرّح به أبو نواس نفسه حيث يقول: «إذا أردتُ أن أجدّ قلتُ مثل قصيدى «أيها المنتاب عن عفره» (الحاوى، ١٩٨٧م، ج١: ٤٩٥) وإذا أردتُ العبثَ قلت مثل قصيدى «طابَ الهوى لعميده» (المصدر نفسه: ٣٥٦) «فأمّـا الذى أفنى فيه وجدى وكلّه جدٌّ فإذا وصفُ الخمر.» (ابن منظور، ١٩٩٥م: ٥٩) وهناک قرائن أخرى تؤكد أنَّ خمرياته حافلة بالرمّوز والأسـرار السياسية والإنسانية، ومن هذه الشـواهد أنه: حُبس عدة مرّات بتهمة الزندقة فى عهد الرشيد ولم يزل إلى أن مات الرشـيد وقام الأمين مكانه، فتوسط له الفضل بن الربيع وأطلقه من السجن. فلمّا سـئل عن سبب حبسه قال: «اتهمونى أنى أشرب شراب أهل الجنة. قال: وما لک ذنبٌ غـير هذا؟ قال: لا واللّه.» (المصدر نفسـه: ٢٩٩) ومن جانب آخر نـرى تأثره بالقرآن الكريم من ناحية اللفظ والمعنى فى الكثير من أبياته الخمرية التى وردت فيها ألفاظ أو معان تبادر إلى ذهن القارئ الآيات التى وردت فى القرآن الكريم وتتحدث عن شراب أهل الجنة من مثل: ﴿يُسـقَون من رحيقٍ مختوم* ختامه مسكٌ فليتنافس المتنافسون× ومزاجه مِن تسـنيم *عينا يشـربُ بها المقرّبون﴾ (المطففين: ٢٨ – ٢٨ – ٢٥) وآيات كثيرة أخرى. ولا يمكن لسـنا معنيين بالموضوع المشار إليه وهو بحاجه إلى دراسة على حـدة. وهناک رواية أخرى نشـغف بهـا كلّما نعود إليها، على أنّهـا أبين القول فى هذا الموضوع وهى: «قال حسـين بن ضحّاک: كنتُ أسـاير أبانواس يوما بالكوفة، فمررنا

بكتّاب وإذا صبيٌّ يقرأ من سورة البقرة: ﴿كلّما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلَمَ عليهم قاموا﴾ (البقرة: ٢٠) فقال: أىّ معنى يستخرج من هذا فى الخمر؟ فقلت ويحک ألا تتّقى الله بكتاب اللّه فلّما كانَ من الغدِ أنشدنى:

وسيّارةٍ ضلّت عن القصدِ بعد ما
ترادفَهم أُفقٌ من اللّيل مظلمُ
فأصغوا إلى صوتٍ ونحن عصابة
وفينافتىً من سكره يترنّمُ
فلاحتْ لهم منّا على النّاى قهوة
كأنّ سناها ضوء نارٍ تَضرّمُ
إذا ما حَسَوناها أقاموا مكانَهم
وإن مُزجت حثّوا الركاب ويمّموا»

(ابن عساكر، ١٣٣٢ق، ج٤: ٢٧٢؛ ابن منظور، ١٩٩٥م: ٣٠٢؛ الحاوى، ١٩٨٧م، ج٢: ٣٠٨- ٣٠٧؛ والديوان: ٤٥)

والآية المذكورة تمثّل الذين اشتروا الضلالة بالهدى وليس لهم علمٌ، ولا هداية. ويؤكد أبونواس، بهذه الأبيات، أن قصده من الخمرة هو النور والهداية. والعجيب أنّ الحادثة المذكورة حدثت فى الكوفة قبل أن يهاجر أبونواس إلى بغداد، أى قبل أن يصل إلى الثلاثين من عمره، تلک الفترة التى يُتّهم فيها بالمجون. فهذه الرواية تدلّ على أنه استعمل الخمرة حتّى من أوان شاعريته بمعنى غيرحسّى وهى مذهبه السياسى والاجتماعى والثقافى. ولإماطة اللثام عن الزوايا الخفية فى شعره الخمرى وأبعاده السياسية والروحية لا بد من الإشاره إلى نزعة أبى نواس الشعوبية فى حياته الاجتماعيه والأدبية وإلى انتمائه إلى الشيعة فى حياته السياسية والدينية. وفيما يتعلق بشعوبية أبى نواس وردت أخبار كثيرة منها قول ابن رشيق القيروانى حيث يقول: «وكان أبونواس شعوبى اللسان ولاأدرى ما وراء ذلک.» (القيروانى، ١٩٢٥م، ج١: ١٥٥) وقد كان للشعوبية هذه دور كبير فى تاريخ الأدب، كما كان لها دور مهم فى السياسة العربية فى العصر العباسى. وأما من الدلائل الهامة التى تشير إلى تشيع أبى نواس فهو ما قاله أبوالعلاء المعرى عنه حيث

يقــول: «ولا أرتاب أنّ دعبلاً كان على رأی الحَكَمی {أی: أبی نواس} وطبقته، والزندقة فيهم فاشــية ومن ديارهم ناشــئة.» (المعرّی، ١٩٨٣م: ١١٥) ولا يخفی علينا تشيع دعبل وإخلاصه لآل البيت وشــعره الصادق فيهم. وأبعد من ذلک، الدراســات القيمة والمفصّلة التی أجراها محســن الأمين فی كتابه المتين المسـّمی ب"أعيان الشــيعة" جعله من أعيان الشيعة وكبارهم فض لا أن يكون واحداً منهم. ومّما يشير إلی تشيع أبی نواس ما جاء فِی مختار الأغانی: «قال أبو سهل إسماعيل بن علی النوبختی:

قــال لی عمی: قلت لأبی نــواس: ما رأيتُ أوقح منک. ما تركتَ خمرا ولا طردا ولا غزلاً ولا مديحا ولا معنیً إلاّ قلتَ فيه شــيئا، وهذا علی بن موســی فی عصرک، لم تقل فيه شيئا. فقال: والله ما تركتُ ذاک إلاّ إعظاما له وليس قدر مثلی أن يقول فی مثله. ثم أنشدنا بعد ساعة:

قيل لی أنتَ أوحدُ الناس طُرّا
فی فنــون مــن المقــال النبيه
لک مــن جيّد القريض مديحٌ
يُثمِــرُ الــدرَّ فی يَــدَی مُجتنيه
فعلامَ توكلتَ مدح ابن موسی
والخصــال التی تجمّعَــنَّ فيه
فقلتُ لا أســتطيع مدح إمام
كان جبريــلٌ خادمــاً لأبيــه

(ابن منظور، ١٩٦٦م، ج٣: ٢٧٧)

وقد ذكر ابن خلّكان عند ذكر أحوال الإمام الرضا (ع) ممّا يدل علی تشيعه أيضا ما جاء فی أعيان الشيعة: «نظر أبونواس إلی أبی الحسن علی بن موسی الرضا عليه السلام ذات يومٍ وقد خرج من عند المأمون علی بغلة لهم. فدنا منه أبونواس. فسلّم عليه وقال: يا ابن رسول الله قد قلتُ فيک أبياتا فأحبُّ أن تسمعها منی. فقال: هات. فأنشأ يقول:

مطهّــرون نقيّــات ثيابُهــم
تجری الصلاة عليهم أينما ذكروا

من لم يكن علويا حينَ تنسبه
فماله فى قــديم الدهر مفتخر
فــاللّه لمّا بــدا خلقــا وأتقنه
صفّاكم واصطفاكم أيّها البشر
فأنتم الملأ الأعلــى وعندكم
علــم الكتــابِ ومــا
جــاءت بــه السُــوَرُ

(ابن خلكان، ١٩٤٨م، ج٣: ٤٣٣)

فقال له الرضا(ع): قد جئتنا بأبيات ما ســبقک إليها أحدٌ. ثم قال يا غلام هل معک من نفقتنا شــيء؟ فقال: ثلثمائة دينار. فقال: أعطها إيّاه. ثم قال: لعلّه اســتقلّها يا غلام، سِق إليه البغلة.» (ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢: ٤٣٣)

وقد ذكر ابن خلكان هذه الأبيات فى كتابه دون ذكر التفاصيل.

وأيضا له شــعر فى الإمام على (ع) «أورد له ابن شــهر شوب فى المناقب أوّلها: قيلَ لى قل فى على مدحا. وأورد له بعد الأبيات الأربعة التى أوّلها: يا ربِّ إن عظمت ذنوبى كثرة... (الديوان: ٦١٨) قوله:

متمسّــكًا بمحمــدٍ وبآلــه
إن الموفق من بهم يســتعصم
ثم الشــفاعة من نبيّک أحمد
ثم الحمايــة من علــىّ أعلم
ثم الحســين وبعــده أولاده
ســاداتنا حتّى الإمام المكتّم
ســادات حرّ ملجا مستعصم
بهِم ألوذُ فذاک حصينٌ محكمُ»

(الأمين، ١٩٨٣م، ج٥: ٣٤٩)

وأيضا ممّا يدل على تشيع أبى نواس «ما رواه الحموى فى كتاب فرائد السمطين عن

قول المبرّد حيث يقول: «خرج أبونواس ذات يوم من دارٍ فبصَر براكب قد حاذاه فسأل عنه ولم يرَ وجهَه فقيل: إنّه على بن موسى الرضا فأنشأ يقول:

إذ أبصرتَــکَ العينُ من بعدُ غاية
وعارضَ فيک الشکُ أثبتکَ القلبُ

ولــو أنّ ركبــا يمّــوکَ لقادَهم
نسيمکَ حتّى يستدِلَّ بک الركبُ»

(المصدر نفسه: ٣٤٨)

وأيضا ممّا يدل عليه ما قاله أبونواس فى الإمام الباقر عليه الســلام «وأورد له ابن شهر شوب هذه الأبيات ويظهر أنها فى الإمام الباقر عليه السلام:

فَهُو الّذى قــدرّ الله العلى له
أن لا يكونَ له فى فضله ثانى

وهو الذى امتحن الله القلوب به
عمّا يُجمجمنَ من كفرٍ وإيمانِ

وإنَّ قوما رَجَوا إبطال حقكم
أمْسَوا من الله فى سخط وعصيانِ

لم يدفعوا حقكــم إلاّ بدفعِهُمُ
مــا أنزل الله مــن آيٍ وقرآنِ

فقدرّوهــا لِأهــل بيــتٍ إنّهُمُ
صنو النبى وأنتم غيرُ صنوانِ»

(المصدر نفسه: ٣٤٨و٣٤٩؛ والديوان: ٤٢٠و٤٢١ مع شىء من الاختلاف)

ودليل آخر قوله فى هجاء إسماعيل بن صبيح، كاتب سر الأمين حيث يقول:

ألا قل لإسماعيلَ إنّک شاربٌ
بكاسِ بنى ماهانَ ضربة لازم

أتسمنُ أولاد الطريد ورهطه
بإهزال آلِ الله من نسل هاشمِ

(الديوان: ٥١٤)

وهجاء أبي نواس لهاشم بن حُديج والإشارة إلى قاتلى على بن أبى طالب (ع) ومحّمد بن أبى بكر هو خير دليل على تشيعه لآل البيت إذ يقول:

يا هاشمَ بن حُديجٍ ليسَ فخرُكُمُ
بقتل صهر رسولِ الله بالسَّدَدِ
أدرجتم فى إهاب العير جثّته
فبئس مـا قدّمت أيديكم لغدِ
إن تقتلوا ابنَ أبى بكر فقد قتلتْ
حُجرا بدارة ملحوبٍ بنو أسدِ

(الديوان: ٥٥١)

وأيضا فى قصيدة أخرى يشير إلى قتل على بن أبى طالب (ع) قائلاً:

فـإنّ حُديجـا لـه هِجـرةٌ
ولكنّهـا زمـنَ الـردّه
ومـا كان إيمانكم بالرسـول
سـوى قتلكـم صهـرَه بعدَه
تعدّونهـا فى مسـاعيكُم
كَعـدِّ الأهلّـة معتـدّه
ومـاكان قاتلـه فى الرجال
بحمـلٍ لطهـرٍ ولا رُشـده
فلو شـهدته قريـش البطاح
لمـا مَحَشَـتْ نارُكُـم جلـدَهُ

(الديوان: ٥٥١)

فكيف يتّهم برأى الخوارج وهو يؤكدّ بأن قاتل على (ع) ليسَ طاهرا ولا راشدا. ألا تؤكدّ هذه الأبيات الواضحة المعنى على تشيّعه؟

ومن شـعره الذى مزج فيه الجدّ بالهزل والتشـيع فيه بينٌ وظاهرٌ، ما أورده له محسن

الأمین عن ابن شهر شوب فی المناقب فی سیرة أمیر المؤمنین علیه السلام. قال:

و مدامةٍ من خمر عانةَ قرقفٍ
صفراءُ ذات تلهّب وتشعشع
رقّت کدین الناصبی وقد صفتْ
کصفا الوالّی الخاشع المتشیّع
باکرتُها وجعلتُ أنشقُ ریحَها
وأمصُّ دُرّتَها کـدُرّة مُرضِع
فی فتیةٍ رفضوا سوی آلِ الهدی
وعنوا بأروعَ فی العلوم مشفّع
وتیقّنـوا أنّ لیسَ ینفع فی غدٍ
غیرُ البطـین الهاشمیِ الأنزعِ

(الأمین، ۱۹۸۳م، ج۵: ۳٤۹)

ودلیل آخر هو أنه قد شـاعت فی تلک الفترة بدعة شتم آل أبی طالب(ع). (جرجی زیدان، تاریخ آداب اللغة العربیة، ج۲: ۳۸۷) وما سمعنا شیئا من أبی نواس، بل إنه کان یُعرض إعراضا تاما عن الدخول فی زمرة الشعراء الّذین شتموا أهل البیت وکان علی رأس هـؤلاء، مروان بن أبی حفصة، (زیـدان، ۱۹۹۲م، ج۲: ۳۸۷) والذی نال الجوائز العدیـدة فی بلاط المهدی وکان مقربّا منه ومن الرشـید من بعده. ومن هؤلاء أیضا إبانّ عبدالحمید اللاحقی وسلم الخاسر. وأیضا دلیل آخر علی تشیّعه هو ذهابه إلی قوم بنی أسد لفصح اللسان کما ذکر ناه عند ذکر حیاته وهم معروفون بالتشیّع حتی الآن.

وقد أکّد ابن منظور علی تشیع أبی نواس إذ یقول: «ومن خلال أبی نواس المأثورة أنه کان یمیل مع أهل البیت سـرا، لا یجسـرُ علی المجاهرة به.» (ابن منظور، أخبار أبی نواس: ۲۱۹) وما کان لرجل شـیعی أن یجاهر بمذهبه فضلاً عن شـاعر قد ذاع صیته فی آلافاق وهو یخالف الحکم العباسی. علی أنه قد شاعت تلک الفترة شتم أبی طالب وآله: أنظر إلی نصح أبی نواس:

خـلِّ جنبَيـک لـرامٍ
وامـضِ عنـه بسـلامٍ
مُـت بـداء الصَّمـت خـيرٌ
لـک مـن داء الـكلامِ
ربّمـا اسـتفتحَ بالمـز
ح مغاليـق الحِمـامِ
رُبّ لفـظٍ سـاقَ آجـا
لَ نيـام وقيـامِ
إنمـا السـالم مـن ألــ
ـجـمَ فـاه بلجـامِ
فألبـس الناسَ علـى الصـ
ـحّـةِ منهـم والسـقام
وعليـک القصـدَ إنّ الــ
ـقصَـد أبقـى للحُمـام
شـبت يـا هـذا ومـا تتــ
ـركُ أخـلاقَ الغُـلام
والمنايـا آكِلاتٌ
شـارباتٌ لِلأنـام!

(الديوان: ٦٢٠)

هـل رأيـت كلاماً أفصح من الأبيـات المذكورة فی بيان الخوف السـائد على تلک الفـترة؟ ينصح الناس ألّا تتكلموّا بالجد، بل بالمزح کی تسـتفتح مغاليق الموت بالمزح، وينصح بالصراحة مؤكّداً:

إنمـا السّـالم مـن ألــ
ـجـمَ فـاه بلجـامٍ

مشيراً إلى أنّ العاقل هو الذی يقتصد فی الكلام، وبالطبع هو الكلام المخالف للحكم

ويشير إلى المنايا التى تنتظر أكل الناس.

وفى مكان آخر يقول:

هــذا زمان القــرود فاخضع
وكُــن لهــم ســامعا مطيعــا

(الديوان: ٥١٩)

فلا عجب أن يختار "التقية" وقاية له فى مواجهاته بالحكومة العباســية كما هو نفسه يشير صراحة إليها حيث يقول:

يــا رَبِّ إنّ القومَ قد ظَلَمُونى
وبلا اغتراف خطيئة حَبَسُونى
وإلى الجحود بما عليه طويتى
ربّى إليــک بكذبهم نَسَــبُونى
ما كان إلّا الجرئى فى ميدانهم
فى جُلّ حالــى والتقيةُ دينى

(EWALD،WAGNER، لاتا، ج١: ٣٤٠؛ والديوان: ٥٩٦ مع شىء من الخلاف)

هذه هى الأخبار والأشــعار التى تؤكد على تشــيع أبى نواس بشــكل واضح، ولا نطيل الكلام فى هذا الحقل أكثر من هذا. وهناک أبيات وقصائد كثيرة أخرى تدل على إسلامه وتشيعه وبإمكان القارئ أن يراجع قسم الزهديات من ديوانه. ولا دليل هناک أن نعتبرها مما قالها فى أواخر عمره توبة إلى الله تعالى.

النتيجة

مهما تباينت الآراء حول حياة أبى نواس وشخصيته وشأن خمرياته وموقفه السياسى وتوجّهاتــه الفكريــة وموقفه من الحياة من خلال شــعره الخمرى، فــإنّ جميع الباحثين يتّفقــون على أنّــه كان عَلَما بارزاً من أعلام الإبداع الفنّى فى تاريخ الشــعر العربى ولا ســيّما فى الخمريات وكان روحاً متفتّحاً لكّل ما هــو عذبٌ وجميل. وفيما يتعلق بحياته الشــخصيّة الشىء المهمّ هو أنّ أخباره السيئة فى الكتب القديمة أقلّ من الأخبار السيئة

فى كتب المعاصرين، والأخبار الدالّة على كثرة علمه وأدبه وثقته وإيمانه أكثر وأكثر من أخبار السوء. ومهما ننتقل إلى الكتب الحديثة نواجه أخبارا غير كريمة تتزايد حوله. فلِلباحث أن يراجع الكتب القديمة القريبة من حياته ليُصان عن الخطأ.

لم يكن أبونواس ذلک الشاعر المتكسّب الذى سخَّرَ شعره تماماً لمدح الخليفة والتقرّب منه للحصول على مغانم المديح فحسب، ولو أنه رافق الأمين مدة قصيرة ومدح بعض الأمراء والوزراء، وذلک عندما ضاقت عليه سبل العيش. والدليل على ذلک أنه سجن عدة مرات فى خلافة هارون الرشيد والأمين بتهمة الزندقة، لأنّه لم يكن تلک الموهبة الشعرية التى ترتدى أثواب الرياء وتختفى وراء أقنعة النفاق الاجتماعى. فإذا كان أصحاب المواهب الصغيرة، أو الذّين افتقروا بكلّ موهبة، قد اختاروا طريق الرّياء والنّفاق واختاروا طريق التملّق لأرباب الجاه والثراء لتحقيق الشهرة والمكاسب الشخصية، فإنّ أبانواس قد اختار فى كثير من الأحايين الاتّجاه المعاكس.

إنه شقّ بموهبته الفذّة عصا الطاعة على المجتمع، واستخدم موهبته أداةً لهدم كلّ بناء فنّى أو روحى يتعارض مع حريّته وانطلاقاته الروحيّة وتوقه المتصل إلى الكشف والتعمّق فى أسرار الحياة والكون والنفس الإنسانية. إنه استخدم جرأته النفسية ليعرّى نفاق المتسلّطين فى المجتمع وضآلة النفس أمام الإطماع، وأمام قيود الأعراف والتقاليد والموروثات. ولكن بقدر ما ارتقت بأبى نواس موهبته باتّجاه قمم الإبداع، عرّضتْه للكيد والوقيعة والتشهير والاتّهامات الكثيرة. وعرّضته كذلک فى الكثير من الأحيان إلى بطش الخليفة، تارة بتهمة الزندقة وتارة أخرى بتهمة الخروج على تعاليم الدين وأعراف المجتمع، وإن كان السبب الحقيقى ليسَ شربه للخمرة مادام الخليفة نفسه لم يكن يمتنع عن شربها، بل لِأنّه اختار من شعره الخمرى وسيلة للتعبير عن موقفه الفكرى والسّياسى والإبداعى مستهينا بكل الأعراف البالية، وعبّر من خلال شعره الخمرى عن انفصاله وغربته.

وإذا كانت مشكلته أن عاشَ غريبا، فإنّ لِأبى نواس مع زمنه وعصره، مشكلة أخرى وهى أنَّه لا يقدر إلاّ أن يتمردّ على الظلّم والعنف، ويرفع راية الحريّة الاجتماعيّه والسيّاسية فى وجه القمع الاجتماعى والسّياسى، وراية الحرّية الفنيّة فى وجه القوالب

الشعرية التقليدية المقدسّة، وراية العصيان على الأعراف، وعلى مظاهر التخفّى والتستُّر فى طلب طيّبات الحياة. ولم يكن كل ذلك من المستطاع إلّا فى قالب شعرى جديد والمسمّى اليوم بالخمريات. الأبيات الخالدة التى كلما تقرأها تجد فيها شيئا جديداً لم تكن تجده من قبل.

ولسنا بقائلين إنه كان مؤمناً قديساً لم يكن يشرب الخمر قطّ. ولا يهمّنا أبدا كان يشربها أم لم يكن من الشاربين، بل كلما ذهبنا إليه: أنه كان مسلما شيعيّاً قام فى وجه الأعراف البالية التى كانت مدعومة من جانب الحكم العباسىّ، بطريقته التى لم يكن لها مثيل فى تاريخ الأدب وهى اختيار التماجن وليس مجونه الشخصى. والذين يعتبرون خمرياته مرآة لحياته الشخصية، ولا مرآة لحياة مجتمعه وعصره، ولا تعبيراً عن طاقاته الفنية، فلا يجدون طريقا لفهم الخمريات ولا يمكن لهم أن يمسّوا جانبا من جوانبها. ولابد لهم أن ينتبهوا إلى دور التماجن والتجانن والتظرف فى تلك الفترة الصعبة فى حياة الناس.

وأخيرا قد استطاع أبونواس من خلال طاقاته الفنية والإبداعية والروحية أن يجعل لخمرته أبعاداً وأن يرسم لها آفاقاً تفترق من الخمرة التى تغنّى بها الّذين كانوا من قبله ومعاصروه. وإذا كانت الخمرة فى شعر سابقيه تُعبّر عن ترف أو تجسّدُ جزءاً من التراث العربى، فقد كان عند أبى نواس تعبّر عن حاجة روحية ونفسية وفكرية وتجسّد ما فى نفسه من غنى فكرى وسياسى وفلسفى وروحىّ. والمتتبع فى خمريات أبى نواس يرى أنّها كانت وسيلة إلى إبداع عوالم شعرية، وأداة لتفجير طاقته الإبداعية وخلق اتجاهه المتميّز والجديد ووسيلة لتنبيه الناس وسوقهم إلى العوالم الإنسانية.

إنّ الوقوف على آفاق خمرة النواسى يقتضى تتبّع أبعاد هذه الخمرة ومعانيها، على حسب المواقف التى استعملها الشاعر. وربما نتعرف على سير حياته فى هذا النوع من الوقوف، على أنّه استعملها فى معان مختلفة على حسب الظروف وعلى حسب ما وصل إليها من الناحية الفكرية. وفيصل القول إنّه لخمرياته، على الأقل، خمسة مراتب ودرجات، منها: الخمرة التقليدية، والخمرة التجديدية، والخمرة الاجتماعية والسياسية، والخمرة النفسية، والخمرة الأخلاقية، والروحية. وفى هذا النوع الأخير نواة قصائد المتصوفة الخمرية من ناحية اللفظ والمعنى. والجدير بالإشارة إلى أنّ معالجة مضامين

خمريات أبى نواس تتطلّب دراسة أخرى.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.
ابن خلكان، ١٩٤٨م. وفيات الأعيان. الطبعة الأولى. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
ابن عساكر، ١٣٣٢ق. التاريخ الكبير. لاط. الشام: مطبعة الروضة.
ابن المعتز، عبدالله. ١٩٩٨م. طبقات الشعراء المحدثين. الطبعة الأولى. بيروت: شركة دار الأرقم بن أبى الأرقم.
ابن منظور، محمدبن مكرّم. ١٩٩٥م. أخبار أبى نواس. الطبعة الثانية. بيروت: دار الفكر والطباعة والنشر والتوزيع.
ابن منظور، محمد بن مكرم. ١٩٦٦م. مختار الأغانى فى الأخبار والتهانى. لاط. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة.
الأثرى، محمد بهجة. ١٩٩٦م. مقدمة تفسير أرجوزة أبى نواس. لاط. دمشق: المطبعة الهاشمية.
الأمين، محسن. ١٩٨٣م. أعيان الشيعة.لاط. بيروت: دار التعارف للمطبوعات.
الحاوى، إيليا. ١٩٨٧م. شرح ديوان أبى نواس. لاط. بيروت: الشركة العالمية للكتاب.
الحاوى، إيليا. ١٩٩٧م. فن الشعر الخمرى وتطوره عندالعرب. لاط. بيروت: دارالثقافة.
حسين، طه. ١٩٧٦م. حديث الأربعاء. الطبعة الثانية عشرة. القاهرة: دار المعارف بمصر.
الزعيم، أحلام. ١٩٨١م. أبونواس بين العبث والاغتراب والتمرد. الطبعة الأولى. بيروت: دار العودة.
شلق، علي. ١٩٩٥م. أبونواس، بين التخطي والالتزام. الطبعة الأولى. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
صدقى، عبدالرحمن. لاتا. أبونواس، قصة حياته فى جده وهزله. لاط. القاهرة: لانا.
ضيف، شوقى. ١٩٧٥م. تاريخ الأدب العربى، العصر العباسى الأوّل. الطبعة الخامسة. القاهرة: دار المعارف بمصر.
العقاد، عبّاس محمود. لاتا. أبو نواس، الحسن بن هانئ، دراسة فى التحليل النفسانى والنقد التاريخى. لاط. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
الغزالى. أحمد عبدالمجيد. ١٩٥٣م. ديوان أبى نواس. لاط. بيروت: دار الكتاب العربى.
الفاخورى، حنّا. لاتا. الجامع فى تاريخ الأدب العربى. لاط. بيروت: دار الجيل.
القيروانى، ابن الرشيق. ١٩٢٥م. العمدة. الطبعة الأولى. القاهرة: مطبعة أمين هندية.
النويهى، محمّد. ١٩٥٣م. نفسية أبى نواس. لاط. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
Ewald، Wagner. لاتا. ديوان أبى نواس. لاط. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة.